المحور السابع

إشكاليّة الكتابة والحياة

س1: هل الحياة عندك أهم أم الكتابة؟ وكيف يمكن أن يحصل التلاؤم بينهما بحيث تستطيع جمع الحياة والكتابة في سلّة واحدة؟

ج1: من البداية أكدت على أمر يربطني في كل مناحي عمري وهو أنني أحمل فكراً جدلياً فلا فاصل بين الأشياء المتحدة، وهذا الفكر ناتج عن كل ما عرفته وتعلمته، بوجودي يوجد فكري وبفنائي يُفنى، الكتابة هي فعل حياة عندي، وحياتي هي الفاعل لما أكتبه، لا أقدر أن أتخيل وجودي من دون أن أكتب، حتى لو فقدت أدواتي التي تساعدني على أن أجعل الكتابة فعلاً مرئياً على الورق فإنني لا بد أن أستمر في الكتابة حتى أستمر في الحياة، أعتقد أنّ آخر عضو سوف يتوقف عندي عن العمل مع الموت سوف يكون هذا الأمر، الكتابة.

لا أُرهق ذاتي في الكتابة مثلما لا أُرهق الكتابة بذاتي هما أمر واحد يتّحد ويتضاد حسب مجريات العمر أو العمرين الحياتي والنصي.

س2: متى يكون بوسع الكتابة أن تثري الحياة؟ وهل الحياة قابلة دائماً للكتابة، أم أنّ لحظات بعينها من الحياة هي التي يمكن أن تتحوّل إلى كتابة؟

ج2: الحياة قيمة عظيمة في كل مناحيها وفي أدق تفاصيلها، في جمالاتها وفي قبحها، رصد كل ما يمر بها وما يعتمرها ضرورة أخلاقية للبشر وإلزامية للكاتب، المشكلة تكمن في عدم تملّك البشر للجرأة اللازمة لمحاورة الحياة، يكتفون بالهذر الذي يخرج من الأفواه في التفاعل معها، يخافون من القلم ويخافون أكثر من الكتاب لأسباب كثيرة ليس هذا موضع الحديث عنها، لكن فيما يخص الكاتب فإن إملاء التجربة أو المرحلة من الوجود "الحياة" حالة تفرض عليه الكتابة ضمن صيغة جمالية تميزه عن حالات مضغ الكلام أو تسويد بياض الورق، الموقف الجمالي الذي يلتزم به الكاتب تجاه الحياة، ما أعنيه بالجمالية ليس الشكل وحسب بل الرؤيا والموقف أيضاً، هي كلها ما يجعل الحياة أكثر قابلية للكتابة حتى في تفاصيلها الصغيرة.

س3: للأديب حياتان، حياة عامة يعيشها كبقية البشر، وحياة أدبية بالغة الخصوصية (والغموض أحياناً)، وأحسب أنّ ثمة لبساً وتداخلاً أحياناً بين الحياتين، كيف تنظر إلى ذلك قدر تعلّق الأمر برؤيتك وتجربتك؟

ج3: فيما يخصني فأنا أمتلك حياة واحدة لكن تخذلني اللغة أحياناً في حياتي العامة، ليس من السهل الحديث عن هذا الجانب فهو موضوع كبير ومتشعب، القارئ

يتمنى أن يتعرّف على حياة المؤلف عندما يتملكه حب ما تجاه العمل الذي يقرأه، هنا تبرز مشكلة صعبة، فالمؤلف لا يمكن أن يكون حاضراً بالكامل مادياً مع القارئ بالصورة التي يكونها في كتاباته، على الرغم من أنه من الضروري أن يعكس حضورُه المادي شخصيته الكتابية، هذا الانعكاس يظل ناقصاً ويكون ظالماً أحياناً، أعني هنا الكاتب الملتزم والتقدمي وأيضاً القارئ المتمكن والقادر على التمييز ليس بين شخصيتي المؤلف وذاته بل بين شخصية المؤلف والحياة. فلا لبس بين الإثنين بل ثمة تداخل يمتلك معرفته وتمييزه من يكون قريباً أكثر من المؤلف. الكاتب الحكومي الذي يريد وتريد له الدولة أن يصل إلى الناس فيدعي أنه يكتب لهم وعنهم يكون مكشوفاً من ممارساته أكثر مما يُكشف من كتاباته، بمثل هذه النماذج تبرز حالة الفصل بصورة أوضح.

س4: أنت الآن متفرّغ للكتابة بعد أن تركت الوظيفة، ما معنى التفرّغ للكتابة؟ وهل تعتقد أنّ ذلك سيمنحك طاقة جديدة للكتابة على صعيد النوع والكمّ؟ وكيف تقيّم مرحلتك السابقة قبل التفرّغ على مستوى علاقة الكتابة بالحياة، وماذا تتوقّع من مرحلة التفرّغ؟

ج4: لا شكّ في أنّ التفرّغ يعطي قيمة مهمة للكاتب تكمن في أمور عديدة أهمها امتلاك الوقت أكثر للقراءةّ أعتقد أن الوظيفة لم تحرمني من الكتابة بقدر ما حرمتني من القراءة، إنّ طبيعة عملي كانت على النقيض من الكتابة والإبداع فقد كنت أعمل في القطاع المصرفي، وحياتي كانت ممتلئة بالأرقام في خلال العمل وحتى في أوقاتي الخاصة، أكثر من ثلاثين سنة وأنا أجادل وأحلل الأرقام والبيانات المالية، بالتأكيد فقد روّضت عقلي على التعامل مع حالة الفصام هذه، وأعتقد أنني قد بدأت بهذا الترويض منذ زمن بعيد من فترة الدراسة فقد كنت عندما أُرهق من الدراسة وحلّ الواجبات المطلوبة مني أسعى إلى أخذ راحتي في حضن كتاب أقرأه، تعبي من القراءة الأكاديمية كنت اشلحه في القراءة الفكرية والأدبية، وهذا ما داومت على فعله خلال سنين العمل، لذلك واصلت الكتابة حتى في ساعات العمل الطويلة التي كنت أقضيها على مكتبي وبين عشرات الملفات والميزانيات، كنت آخذ راحتي في مجالسة كتاب منتخبين.

مع التفرغ اختلفت الصورة صارت عندي الإمكانية للكتابة أكثر وللتواصل مع النشاطات الأدبية، ومتابعة نشر ما أكتب بصورة أكثر دقة بعد أن كنت أتركها للناشر يحركها كيفما يريد، أما فيما يخص نوع وشكل ما أكتبه فالتفرغ لن يضيف لها جديد لأن نهجي دائماً كان قائماً على أساس تطوير هذين الأمرين في كل عمل جديد.

س5: السفر حياة مضافة، وأنت سافرت كثيراً، ماذا أضاف لك السفر بوصفه تجربة غنية وخصبة، ماذا أضاف لحياتك وكتابتك؟

ج5: للـ□فر قيمة كبيرة واحدة وهي أنك تُعطى الفرصة لأن ترى الحقيقة، كل ما تعلمناه أو □معناه أو شاهدناه على التلفزيونات كذبة لا تفضحها إلا المشاهدة، في الـ□فر ترى بأمّ عينك أطفال غزة يذهبون إلى المدارس ملفعين بملابس البالات إتقاءً للبرد والمطر وهم حفاة لأنهم لم يملكوا ثمن الحذاء، وترى في نيويورك مظاهرة لأنصار البيئة وليس لأنصار كوبا يقابلها رجال الأمن بودّ وبلا عنف، حتى ينصرف الصحفيون والإعلام الذي يلتقط مشهد الديمقراطية ثم ترى بعدها كيف يقمع البوليس الأميركي المتظاهرين، في الـ□فر ترى العالم مثلما هو وليس مثلما تريد وكالات الأنباء أن تصوره، الـ□فر يريك العالم الجميل الكائن في البشر وفي حركتهم وفي لغتهم وفي تعاملهم معك، كل ما هو موجود في بلدك موجود في كل البلاد، الأغنياء والمترفين واللصوص والفقراء والقتلة، ما يختلف هو في الأمكنة التي تقرأها بوعيك والبشر الذين تقرأهم بمعاملتهم لك. الـ□فر يهب لك الحقيقة ويهب لما تكتب الرؤيا التي تراها أنت وليس التي يريدك الآخر أن تراها.

س6: لو وضعت لك (الحرية) بين (الحياة) و (الكتابة)، كيف سيكون بوسعك أن تدير التنازع المفهوميّ بين الحياة والكتابة حول الحرية؟ بمعنى هل أنّ حرية الحياة تستولد حرية الكتابة أم العكس؟

ج6: الحرية بكل مفاهيمها مطلب لتحقق الحياة، فما نقضيه من عمر من لحظة الميلاد إلى الموت لا يكون حياة إذا افتقد لشرط أن يكون الإنـ□ان حراً، أفهم الحرية بكل الدلالات التي تلازمها في كل الثقافات وأعرف أنها ليـ□ت بديلاً عن شيء أخر هي ذاتها، وهي معنونة بعنوان إنـ□اني جامع أن أكون بلا □تغلال وبلا تجريم وبلا تضليل أو تجهيل وبلا انتهاك حقوقي وملكياتي ومنحها للغير، في توفر هذه الحرية تتوافر حرية أن أكتب بالضرورة، وأن أكون حراً وممنوعاً من الكتابة فـ□وف أكون أكثر الناس شعوراً وإحـ□اً بكوني محاصراً ومقيداً ومـ□تلباً من الحرية.

س7: ثمة قيود تعكّر صفو العلاقة المطلوبة بين الكتابة والحياة، ما هي أبرز هذه القيود في سياق تجربتك؟ وكيف تعاملت معها؟ وإلى أيّ حدّ نجحت (وبصراحة)؟

ج7: إن أقـ□ى قيد يواجهه الكاتب اليوم هو الجهل والتخلف، أما ما كنا نواجهه في الماضي و قد كان الأقـ□ى هو تابوهات الحكومات وخطوطها الحمر ومحرماتها. منذ أن بدأت بالكتابة وبالنشر بعد ذلك لم أعر مقص الرقيب اهتماماً، فلطالما كنت أكتب لأمارس طقـ□اً من طقوس حياتي فلم أكن معنياً بما يؤول إليه مصير ما أكتبه، لم أكن أتلهف للنشر ولا لقبض ثمن قصة أنشرها ولا أن أفوز بجائزة، لذلك كنت أول من كتب عن عمان بـ□مها وهي التي كانت مغيّبة تحت رمز أو مـ□مى غريب عند باقي الكتاب، □تطعت أن أحقق ذاتي الكتابية من دون خوف من شيء أو على شيء، ففي الوقت الذي مُنعت روايتي "أرض أكثر جمالاً" من النشر وتمّ حرقها أمام عيني

في حديقة دائرة المطبوعات والنشر قمت وعدد من الأصدقاء بطباعتها عند طابع تقدمي راً وبتوزيعها وبيعها، أذكر أننا قد طبعنا ألف نسخة نفدت جميعها في بضعة أيام .

شكل القيود التي يواجهها الإنسان العربي إجمالاً وليس الكاتب الآن تكمن قوتها في معادلة تخالف سير التاريخ، ففي جميع العصور تجد أن القيود التي تحاصر الإنسان تأخذ بالانفكاك مع التطور والحضارة، ما يحدث في حياتنا أن هذه القيود تزداد إحكاماً كلما تقدم الزمن، قد تكون هذه معادلة معقدة وصعبة ولكنها حقيقة عربية راسخة، في بداياتنا وأعني هنا في العقدين الأخيرين من القرن الماضي كُنا ككُتاب نُحكم بقيد السلطة والممنوعات والمحرمات التي يقف الرقيب فيها فوق رؤوسنا لمنعنا من تجاوز خطوط الحكومة الحمراء، حتى أن هذه القيود تتحول إلى فوبيا تجعل الكاتب يضع فوق رأسه مقصّ هذا الرقيب قبل أن يضع في يده القلم، أمام هذا القيد كنا نقدر على التحايل على الرقيبين باللجوء إلى الرمز أو في الكتابة تحت اسم مستعار أو في النشر خارج البلد.

اليوم وفي العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين كثُرت المقصات ولم تعد هذه المقصات تمزق الكلمة الخارجة عن القانون بل صارت تخترق رأس الكاتب والمُفكر أو تقطع رأسه، هذا بفضل الحكومات أيضاً، صرنا محكومين لما يريده الظلاميون والجهلة الذين سنّوا قوانين حظر للكتابة تقوم على مبدأ آخر غير خطوط الحكومة الحمر وهو التكفير، تجد أن هذه الجهات التي صنعتها الحكومات أيضاً تقوم بتنفيذ أحكامها من غير محاكمات، فيُقتل فرج فودة وحسين مروة هذا العجوز الذي تجاوز الثمانين وتحرم زوجة نصر حامد أبو زيد عليه، ويرمى عشرات المثقفين والمفكرين في السجون حسب قوانين الحكومات التي سنتها نزولاً عند رغبة هؤلاء الظلاميين وهي ممنونة لأخذهم دور القمع منها.

س8: هل أنت من يكتب الحياة، أم أنّ الحياة هي التي تكتبك؟

ج8: أعتقد أن الحياة بتصاريفها العجائبية معي هي التي تكتبني وقد أكون فهمت الآن من هذا السؤال لماذا أجيب دائماً بأنني أكتب لنفسي، علاقتي بالحياة غريبة مصادفاتها طغت كثيراً على السنوات التي عشتها حتى الآن، ويمكن أنها قد تجاوزت حصتها معي فأعفت كائناً أخر على الدنيا من مصادفاته وألقتها عليّ.

الحياة هي التي تكتبني أنا لست سوى اليد والقلم.

س9: صف لي حياتك في مانشيتات موجزة، هل تعتقد أنك عشت كما يجب؟ وهل ترى أنّ الحياة بفُرصها الاستثنائية قد خدمتك، وهل تتصور أنّ الكتابة يمكن أن تكون جواباً على ما قدّمته الحياة لك من فُرص فجّرت رغبة الكتابة لديك؟

ج9: سؤال ممتع يريح من عناء كتابة السيرة الذاتية، من الممكن أن أكون قد أجبت على بعض هذا السؤال في مواضع أخرى لكن لا بأس من أن أقول، بمصادفة

جميلة وُلدتُ في فلسطين، وعشت غنى وترفاً عائلياً واجتماعياً، وعانيت وأهلي الفاقة والجوع سنوات طويلة، نجوت من الموت كثيراً في معارك السبعين من القرن الماضي وكان جرحي من شدة الخوف أني فقدت صوتي شهراً كاملاً، تعرضت لحادث كُفِّر فيه ظهري بعد توقيفي أمام مبنى المخابرات في سنة 1978، صرت مع هذا الحادث في وضع صعب فلا يوجد أمامي غير احتمال من اثنين الموت أو الشلل وهربت من الإثنين، تطوعت للحرب في لبنان خلال الاجتياح الإسرائيلي سنة 1982 حيث مُنعنا من دخول بيروت وعدت لعمان حياً، ونجوت من الموت أيضاً أكثر من مرة من زوج ضبطني في سريره مع زوجته، ومن شقيق المرأة التي كانت أجمل عشق لي عندما حملت مني.

بطفرة عجائبية تفوقت في الدراسة الثانوية وحزت على منحة دراسية بعد أن كنت "ألطش" يعني الأخير في الصف في السنة التي سبقت الثانوية، التحقت في الحزب الشيوعي ومارست العمل الحزبي السري سنوات طويلة ونجوت من السجن عشر سنوات مثل رفاق آخرين قضوا هذه الفترة في السجن بعد أن كُفِّر ظهري. مصادفة عملت في قطاع المصارف على الرغم من أنني أحمل شهادة في اللغة العربية، تزوجت مرة وأنجبت بنت واحدة وثلاثة أولاد، عشقت عشرات المرات وكنت عاشقاً مخلصاً في كل مرة، قد تستغرب كيف للإنسان أن يعشق عشرات المرات ويظل مخلصاً؟ لكن هذه هي الحقيقة ففي كل مرة لم أكن أعشق سوى ذات المرأة وفي كل مرة كنا نفترق لظروف تفرض هذا الانفصال، وهذا الانفصال برأيي هو تأكيد للحب فلو انتهت قصة الحب بالزواج لكان اسمها قصة زواج وليس قصة حب.

لم تخدمني كل هذه المصادفات بل بعضها في الكتابة، على العكس الكثير من المحطات كانت قوة دافعة ضد أن أكتب وليت داعمة. مثل عملي وزواجي. هذا اعتراف لا اعرف إن كان يجب أن أضعه هنا أم لا؟.

بتصوري إن هذه المصادفات وغيرها لو أنها حدثت لشخص أخر أقل حساسية وإفراطاً في العاطفة لكانت مرشّحة لأن تُعاش أجمل مما عشتها.

س10: لمن تقدّم بطاقة شكرك الكبيرة، للحياة أم الكتابة، ولماذا؟

ج10: للكتابة بلا شك فهي التي خلت حياتي تصل إلى هذا المكان وإلى هذه النقطة، وهي التي شكّلتني وصنعتني بالحالة التي يحبها من يعرفها، سواءً بالالتقاء بي شخصياً أو عبر الكلمات. بالكتابة تشكّلت أنا الإنسان، وصرت جزءً حلواً من حياة من قرأوني وقبلوا بي، فأية قيمة يسعى لها الإنسان في الحياة أجمل من ذلك؟